سابعاً: وسائل الدعوة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية

obeikandl.com

obeikandl.com

سابعاً: وسائل الدعوة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية

تنوعت وسائل الدعوة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية إلى وسائل متنوعة منها:

١ – الكتب:

في فترة الحروب الصليبية كان الكتاب من أهم وسائل الدعوة الموجهة إلى النصارى، وكان له أثره في إبطال شبههم، وفضح ضلالاتهم، وكشف تلبيس مبطليهم وبيان الحق الذي عُميَّ على عامتهم، ومن الأمثلة على ذلك كتاب " الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاخرة للقرافي" حيث كان السبب الأول الذي دفعه لتأليف هذا الكتاب رسالة بعث بها أحد النصارى يقيم الحجج فيها على صحة دينه[١]، ومثله كتاب القرطبي - الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام - حيث كان الدافع الأول لتأليف القرطبي هذا الكتاب كتاب بعث به أحد قساوسة النصارى في طليطلة بالأندلس

(١) الأجوبة الفاخرة ص ٣.

obeikandl.com

أسماه - تثليث الوحدانية [١]فحرَّك ذلك القرطبي لتأليف كتابه رداً على كتاب القسيس متتبعاً له ومناقشاً ما أورده فيه من شبه، ومبطلاً ما اعتمدوا عليه في ديانتهم وعقائدهم ومن الكتب التي كان السبب المباشر في تأليفها كتابات لبعض النصارى بعثوا بها إلى المسلمين، كتاب الرد على النصارى لصالح بن الحسين الجعفري [٢]، وكذلك من الكتب رد أبي عبيدة الخزرجي على شبهات قسيس طليطلة وتفنيدها، وردود بعض علماء الأندلس على رسالة ابن غرسيه النصراني في ذم العرب والمسلمين والتي كثر تداولها في الأندلس في هذه الفترة حيث ألف بعض العلماء في الرد عليه منهم: محمد بن مسعود بن طيب بن أبي الخصال وكان رده بعنوان - خطف البارق وقذف المارق في الرد على ابن غرسيه المارق [٣]وهناك نوع آخر من الكتب التي ألفها علماء هذه الفترة بمبادرة منهم وذلك دعماً للسلطة في مواجهة النصارى ودعوتهم، ومن هذه الكتب كتاب أدلة التوحيد في الرد على النصرانية لأحمد بن إدريس القرافي ومن الكتب في هذه الفترة ما ألفها بعض العلماء ابتداء رجاء هداية النصارى من خلال مناقشة عقائدهم وبيان بطلانها وإيضاح الحق الذي اشتبه على كثير من عامتهم بسبب تلبيس قساوستهم، ومن الأمثلة على هذا النوع من الكتب كتاب تخجيل من حرف التوراة والإنجيل لصالح بن الحسين الجعفري [٤]وغيرها من الكتب الكثيرة التي ناقشت قادة الرأي ورجال الدين النصارى كرسالة أبي عبيدة

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص ٤٣.
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٤٤٨/١).
(٣) المصدر نفسه (٤٥٠/١).
(٤) دعوة المسلمين النصارى (٤٥١/١).

الخزرجي إلى قسيس طليطلة وكتاب الواضح المشهود ولها أثرها أيضاً من جهة أن بعضها كان رداً مباشراً على قضايا معينة أثارها النصارى في هذه الفترة وكان لها رواج فكان الرد على مثل هذه القضايا له انتشاره وأثره على العامة من النصارى الذين راجت عندهم، فوصل إليهم الرد والشبه عالقة في أذهانهم فكان أدعى إلى تفنيدها وإزالتها وذلك مثل رد أبي الخصال وغيره على رسالة ابن غورسيه، ورد القرافي في كتابه الأجوبة الفاخرة على أسئلة تعّود النصارى إثارتها وترويجها في هذه الفترة، ولهذه الكتب أيضاً أثرها في تعميق التأثير في القارئ بل وفي طبقات المجتمع النصراني بشكل عام في هذه الفترة وذلك لكونها أطول بقاءً وأوسع انتشاراً وأسهل تداولاً. فالمحاضرة والخطبة والمناظرة وغيرها في ذلك الوقت يبقى تأثيرها محدوداً من حيث وصول أثرها للحاضرين في وقتها، أما الكتاب - وإن كان تأثيره بطيئاً -فإن أثره عميق، لكونه يُتداول في المجتمع النصراني بمختلف طبقاته فيتسرب لذلك أثره إلى هذه الطبقات إما بإسلام البعض أو بإزالة شبهة قائمة حول الإسلام، أو بتشويش ما لديهم من قناعات حول معتقدهم [1].

٢ – وسيلة الجهاد:

وفي عصر الحروب الصليبية كان الجهاد في سبيل الله من أهم وسائل الدعوة الموجهة إلى النصارى وقد تحدثت في كتبي السابقة عن السلاجقة والزنكيين وصلاح الدين وعن هذه الوسيلة بنوع من التفصيل، ولقد ساهمت وسيلة الجهاد في إتاحة أعداد كبيرة من النصارى الأوروبيين المقاتلين في الجيوش الصليبية وبهذا تحقق الاحتكاك

(١) المصدر نفسه (٤٥٢/١).

بالمسلمين ومعرفة بعض معتقداتهم وأخلاقهم وما يتميز به كثير من القادة المسلمين من عدل ورحمة وعطف، هذه الصفات التي تعكس الأخلاق الإسلامية وتعطي صورة صادقة عن سماحة الإسلام، الأمر الذي جعل أعداداً كبيرة من أفراد هذه الحملات يعتنقون الإسلام، بل إن بعض قادتهم أقسم ألا يقاتل المسلمين لما رآه من عدل وإنصاف لدى بعض القادة، وكثيرون منهم تبدلت عداوتهم إلى محبة للمسلمين بسبب حسن المعاملة التي وجدوها من قِبل الجيوش الإسلامية، وللجهاد أثر واضح في دعوة النصارى من ناحية كونه أتاح الكثير من الاتصالات بين قادة الفريقين سواء عن طريق الرسل أو من خلال الرسائل والمكاتبات أو الاجتماعات المباشرة. [١] ومن أعظم آثار وسيلة الجهاد في هذه الفترة تجاه النصارى أنها أظهرت عزة المسلمين وقوتهم أمام أعدائهم، وجعلتهم أمة مرهوبة الجانب تحطمت على صمودها وقوتها حملات الصليبيين المتعاقبة، مما جعل كثيراً من عامة النصارى خاصة في أوروبا تتزعزع قناعاتهم بصحة ما هم عليه، ويفقدون الثقة برجال دينهم الذين وعدوهم بالنصر والغفران والسعادة [٢]، فحينما عاد جماعة من النصارى المشاركين في إحدى الحملات الصليبية أخذوا يدعون إلى التحرر من سلطة رجال الدين لديهم وأعلنوا أنه: لو اجتمعت الباباوات والكرادلة من أولهم إلى أخرهم على أن يضعوا عن مخلوق ذنباً واحداً ما قدروا، بل الله يغفر الذنوب [٣]، بل إن أعداداً كثيرة من النصارى في أوروبا أخذوا يصرحون أن إخفاق الحملات الصليبية يدحض ما يدعيه

(١) دعوة المسلمين في عصر الحروب الصليبية (٤٦٥/١).
(٢) المصدر نفسه (٤٦٧/١).
(٣) أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية ص ١٤٥.

البابا من أنه نائب عن الله أو ممثل له في أرضه.[١] ولمَّا أخذ الرهبان في أوروبا يدعون إلى إحدى الحملات الصليبية المتأخرة ويسألون الناس بذل المال دعما لها كان كثير من النصارى يسخرون منهم حتى أنهم أخذوا يوزعون المال على الفقراء باسم محمد ﷺ من قبيل السخرية بالرهبان، لأن محمداً ﷺ قد ظهر أنه أعظم قوة من المسيح في هذه الحروب[٢] وقد بين أحد الكتاب الغربيين أن من أهم نتائج فشل الحملات العسكرية الصليبية - والتي كان الجهاد في سبيل الله السبب المباشر في ذلك - إن هذا الفشل بعث كثيراً من العقول في أوروبا على التفكير، وكان سبباً في إضعاف العقائد الدينية المستقرة لدى النصارى في القرنين الثالث والرابع عشر [٣].

٣ – وسيلة الرسل:

في عصر الحروب الصليبية اعتمد المسلمون كثيراً على الرسل في اتصالاتهم مع النصارى- خصوصاً مع الصليبيين- فمن خلالهم نُقلت وجهات النظر الإسلامية إلى النصارى حيال كثير من الأمور التي كانت مدار خلاف بين الطرفين في هذه الفترة، وعن طريقهم تبدلت مواقف كثير من النصارى العدائية تجاه الإسلام والمسلمين، ولدورهم الفعال تحققت الكثير من المصالح للمسلمين في مواجهة النصارى ودعوتهم- جصوصاً - إذا كان لهؤلاء الرسل مجال في المفاوضة والمحاورة والنقاش[٤].

(١) قصة الحضارة (٦٧/٤).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (٤٦٧/١).
(٣) دعوة المسلمين للنّصارى (٤٦٧/١).
(٤) المصدر نفسه (٤٧٠/١).

٤ – وسيلة المسجد:

في عصر الحروب الصليبية كانت المساجد من وسائل الدعوة الموجهة إلى النصارى، حيث يظهر ذلك من خلال كونها معلماً من معالم المدن الإسلامية، فمن أول ما يلفت نظر غير المسلم الزائر للمدينة الإسلامية هذه المساجد التي لم يعتد رؤيتها في بلاده، فيطرح ذلك بعض الأسئلة في ذهنه والتي ربما تقوده إلى البحث ومحاولة التعرف على الإسلام، فالمساجد من هذه الناحية أول منادٍ يدعو إلى الإسلام لغير المسلم الذي يشاهدها لأول مرة، وهذا هو حال كثير من النصارى القادمين مع الحملات الصليبية الذين لم يعتادوا رؤية المساجد من قبل في بلادهم وفي المساجد يرفع الآذان الذي يتضمن تمجيداً لله سبحانه وتعالى وتوحيداً له وإعلاناً بنبوةّ محمد ﷺ وفي ذلك نقض لعقيدة التثليث لدى النصارى ورد على تكذيبهم بنبوة محمد ﷺ، ولا شك أن سماع النصارى للآذان وتكراره في اليوم خمس مرات على مسامعهم فيه دعوة مباشرة لهم بالتوحيد والإيمان بنبوّة محمد ﷺ بغض النظر عن الاستجابة[١]، وكانت هناك مساجد كثيرة بأيدي المسلمين منفردين في الصلاة فيها وهي تحت الحكم النصراني وقد بقيت على حالها وهذا ما أشار إليه ابن جبير في مدينة صور- وهي تحت الحكم الصليبي- حينما زارها حيث قال:" وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقي بأيدي المسلمين، ولهم فيها مساجد أخرى" [٢]. كذلك ارتياد النصارى لبيت المقدس واختلاطهم بالمسلمين فيه وتعودهم رؤية المسلمين يؤدون صلاتهم فيه، أدى إلى

(١) المصدر نفسه (٤٧٧/١).

(٢) رحلة بان جبير ص ٢٧٩ دعوة المسلمين للنصارى (٤٧٨/١).

تبدل نظرة الكثيرين منهم إلى المسلمين من نظرة متعصبة حاقدة إلى نوع من المودة والاحترام وقد أشار أسامة بن منقذ إلى شيء من ذلك: فبينما كان يؤدي الصلاة في بيت المقدس متجهاً إلى مكة وحوله بعض الفرنج تقدم إليه أحدهم وصرفه عن القبلة، فمنعه آخرون منهم واعتذروا لأسامة، وأن هذا الرجل قدم حديثاً من البلاد ولم يتعود أن يرى مسلماً يصلي متجهاً إلى مكة[١]، لذلك استنتج هذه الملاحظات أسامة بنفسه حيث قال: فكل من هو قريب عهدٍ بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين[٢].

وقد كان لبعض المساجد في بلاد المسلمين شأن وذكر، بل إنها استحوذت على بعض القادة المسلمين، لكون العناية بمثل هذه المساجد وسيلة لكسب المسلمين الخاضعين لسيطرتهم ومن ذلك مثلاً مسجد القسطنطينية الذي دارت بشأنه العديد من السفارات بين صلاح الدين وإمبراطور الروم- والذي كان يبدي اهتمامه وعنايته بهذا المسجد- حيث أرسل صلاح الدين من أجل ذلك سفارة تضم إماماً وخطيباً للمسجد، وكان لذلك أثره في إبراز صورة الإسلام في معقل من معاقل النصرانية، وقد قال ابن شداد عن ذلك:".. وكان يوم دخولهم - أي سفارة صلاح الدين إلى القسطنطينية" يوماً عظيماً من أيام الإسلام شاهده جمع كثير من التجار، ورقى الخطيب المنبر، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار وأقام الدعوة الإسلامية العباسية [٣]، لقد قامت المساجد بدورها في دعوة النصارى إلى الإسلام العظيم.

(١) الاعتبار، لابن منقذ ص ١٣٤ - ١٣٥.
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٤ دعوة المسلمين للنصارى (٤٧٨/١).
(٣) النوادر السلطانية ص ٢٠٢ دعوة المسلمين للنصارى (٤٧٩/١).

٥ – وسيلة الرسائل:

في عصر الحروب الصليبية استطاع كثير من قادة المسلمين وعلمائهم إيصال الحق إلى النصارى من خلال الرسائل وقد اختلفت موضوعات هذه الرسائل إلا أنها في النهاية في مجموعها لصالح المسلمين، فهي إما دعوة مباشرة للإسلام، أو بحث في أمر يهم المسلمين في مواجهة النصارى، أو أنها رسائل تحمل نوعاً من التلطف واللين مع قادة النصارى ومقدميهم درأً لشرهم وكسباً لقوة بعضهم ضد بعض ومن الأمثلة على استخدام الرسائل من قِبل المسلمين تجاه النصارى في هذه الفترة رسائل صلاح الدين الكثيرة إلى بعض قادة الفرنج والتي منها رسائله إلى ملك القسطنطينية في شأن إقامة خطبة الجمعة في القسطنطينية وترتيب إقامة الصلاة فيها وما يتعلق ببناء مسجد للمسلمين هناك، حيث تمّ ذلك وكان قد أنفذ - رحمه الله - مع إحدى رسائله في هذا الشأن خطيباً ومنبراً وجمعاً من المؤذنين [١]ومن رسائل صلاح الدين إلى النصارى رسالته إلى ملك الإنجليز رداً على رسالة بعث بها الأخير إليه متضمنة المطالبة بتنازل المسلمين عن القدس وبعض البلاد الشامية، واسترجاع صليب الصلبوت المعظم عندهم، والذي غنمه المسلمون منهم في معركة حطين، فكان جواب صلاح الدين، في رسالته على رسالة الملك الصليبي الرفض التام للحديث في شأن القدس أو التنازل عن شيء من أراضي المسلمين، أما تسليم صليب الصلبوت للنصارى فإن ذلك لا يكون إلا لمصلحة راجحة للإسلام [٢]حيث قال في هذه

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (٤٨٥/١).
(٢) المصدر نفسه (٤٨٥/١).

الرسالة:".. هو عندنا - أي القدس - أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبيّنا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت.. وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ولا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجحة إلى الإسلام هي أوفى منها "[1].

وهكذا كانت وسيلة الرسائل في هذه الفترة من الوسائل التي استخدمها المسلمون في إيصال الدعوة إلى النصارى [2].

* * *

(١) النوادر السلطانية ص ٢٩٠.

(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٤٨٨/٣).

obeikandl.com